

من دلائل الإعجاز

د. مصطفى عبدالمعتم

الأستاذ المشارك بكلية الطب جامعة المنصورة — مصر



إن دراسة آيات الإعجاز في القرآن الكريم خصوصاً ما يتعلق منها بخلق الإنسان يفتح الباب أمام غير المسلمين للدخول في دين الله كما يفتح الباب للمسلمين ليزدادوا إيماناً بعد إيمانهم وليتضعوا من ذلك بالكثير من الدروس المستفادة، وأهم هذه الدروس هو إقامة الدليل والحجة بهذا العلم على إمكانية البعث يوم القيامة، ولتوضيح ذلك نذكر بعض المبادئ والأسس المستفادة من آيات الخلق في القرآن الكريم:

أولاً: الارتباط بين آيات خلق الإنسان والبعث :

قال تعالى في سورة المؤمنون: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً * فإِذْ قَرَّبَرْنَا مِنْ نَتْفَةِ عِلْقَةٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا الْمُنْطَفَةَ عَلِيقَةً * فإِخْلَقْنَا إِلَى عِلْقَةٍ مَضْغَةً * فَخَلَقْنَا الرُّمَّةَ * عظاماً فَنَكَّسُونَا إِلَى عِظَامِ لِحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ * خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بِعَدَدِ ذَلِكَ لَمُحْسِبَتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَابِعُونَ) (المؤمنون) 16-12 .

وقال تعالى: (فَالْيَنْظُرِ الْإِنْسَانَ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ * وَلْتَنظُرْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) (الطارق) 5-8 .

وحين جاء عدو الله أباي بن خلف إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء ويقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال - صلى الله عليه وسلم: (نعم، بميتك ثم يبعثك ثم يحشرك في النار) (أولم ير الإنسان أن آخ خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحيى به الذى الذى أنشأه أول مرة وهو بكل خلق عليم) (يس) 77-79 .

وأظهر من ذلك قوله تعالى في سورة الحج: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ آلِ بَعَثِ فَإِنَّا خَلَقْنَا لَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلِقَةٍ ثُمَّ مِنْ مَضْغَةٍ مَخْلُوقَةٍ وَعَرِيٍّ * فَخَلَقْنَا لِنَبِيِّنَا لَكُمْ وَنَقَرْنَا فِي الْمَرْحَلِ مَا * نَشَأُ إِلَى آجِلٍ مَسْمُومٍ * ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِنَبِّئِكُمْ أَشْدَّكُمْ * وَمَنْكُمْ مَنْ يَتُوفَى * وَمَنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ * عِلْمٍ شَيْئًا * وَيَتْرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً * فَإِذَا أَنْزَلْنَا * عَلَيَّهَا الْمَاءَ لَهْتَزَّتْ * وَرَبَّتْ * وَأَنْبَتَتْ * مِنْ كُلِّ * زَوْجٍ بَمُيَّجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ * يَحْيِ الْمَوْتَى * وَأَنَّهُ * عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ * السَّاعَةَ * آتِيَةٌ * لَا رَيْبَ فِيهَا * وَأَنَّ اللَّهَ * يَبْعَثُ * مَنْ * فِي * الْقُبُورِ) (الحج) 5-7 .

(وهذا دليل قاطع على أن الله تعالى قد جعل خلق الجنين في الدنيا دليلاً على البعث يوم القيامة بل ودافعاً لأي شبهة في المشك في هذا البعث ذلك أن من خلق شيئاً فهو قادر على إعادته من باب أولى.

ثانياً: تحقق أحد الغيبين دليل على صدق الآخر:

فإن الله تعالى قد أنزل في كتابه - في زمن النبوة - أمرين من الغيب.. الأول هو مراحل خلق الجنين... والثاني هو بعث الناس من قبورهم يوم القيامة... فإذا كان الأمر الأول قد خرج من عالم الغيب إلى عالم الشهادة في القرن الحادي مصداقاً لقوله تعالى: (لِكُلِّ نَبِيٍّ مِمَّنْ تَقْرَأُ وَصُوفِ تَخْلَعُونَ) (الأنعام) 67 .

(. فإن هذا بمثابة الحجة المدامغة على أهل هذا العصر للدلالة على صدق القرآن الكريم وأن ما أخبر به من أبواب الغيب الأخرى مثل البعث يوم القيامة واقع لا محالة.

ثالثاً: معجزة خلق الجنين في الدنيا مساوية:

إن لم تكن أعظم - من معجزة البعث؛ ذلك أن آيات الله بعضها أكبر من بعض كما قال الله تعالى: (وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَاتِهِ إِلَّا كَأَكْبَرَ مِنْ أَخْتِهَا)⁴⁸ الزخرف (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) وقال تعالى: (الرُّومِ)²⁷ وقال ابن طلحة عن ابن عباس: (يعني أسير عليه) وقال مجاهد: (المعادة أهون عليه من البداءة والمبداءة عليه هينة) وروى الإمام البخاري عن الربيع بن خثيم والحسن: (كل عليه هين) وقال الإمام ابن حجر في المفتح: (وأما أثر الحسن فزواله الطبري أيضاً من طريق قتادة وأظنه قال عن الحسن ولكن لفظه) وإعادته أهون عليه من بدنه) وظاهر هذا اللفظ إبقاء صيغة أفعل على بابها. وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: (يقول الله تعالى كذبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك؛ فأما تكذيبه إياي فقولته لن يعيدني كما بداني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقولته اتخذ الله ولداً، وأنا الواحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) وهذا يبين تمام روعة معجزة خلق الجنين التي غفل عنها كثير من الناس على كثرة ما شاهدوها.

رابعاً: إلف المعجزة حائل دون المتعاضد بها:

فكما أن إلف الطاعة قد يذهب بما فيها من خشوع وإلف المعصية يجرئ المعاصي عليها فإن إلف المعجزة قد يقف حائلاً أمام المتعاضد بها.. فما من لحظة تمر إلها ولله فيها خلق جديد أو تطور لجنين من مرحلة إلى مرحلة ومن هيئة إلى أخرى في تتابع معجز يغني كل باحث عن بيان قدرة الله تعالى المطلقة وإقامة الدليل على البعث يوم القيامة ولكن غفل عنها المغفلون حين ألفوها وقد ذم الله . تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته المدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدرته وآياته فقال تعالى: (وَلَئِنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) يوسف (105) . ولقد جئنا الله تبارك وتعالى على الملتفات لآياته في الكون وأن نتفكر فيها لا أن نحجب بألفها فقال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) آل عمران (190) وقال تعالى في آية لا تخلو من أسلوب التعجب: (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) المذاريات (21) .

ومن هذا يتضح أن معجزة خلق الجنين في الدنيا قد جعلها الله تعالى دلالة مادية قاطعة لإثبات عقيدة البعث يوم القيامة.. وهي معجزة متجددة متاحة لأهل الأرض جميعاً على اختلاف أماكنهم كما أنها أظهر لأهل عصرنا لما ثبت من دليل مادي على صدق كتاب الله فيما أخبر عن مراحل خلق الجنين التي تتلاقى مع حقائق العلم الحديث التي كانت غيباً في زمن النبوة.